أيها المصرى من أنت ؟ أنا أى شئ إلا ما يتصورون

السؤال فى خاطرى منذ بدأت أدرس التاريخ . ولكن الإجابة عليه عافية فى أطواء عشرة آلاف سنة أو تزيد . لأن المصرى الذى نراه — وحسب أنه إنسان بسيط طيب القلب ، قلبه على لسانه ، كما نقول ، ويرضى بالقليل ، ويأخذ الأمور كما تأتى . ويترك الظروف تحل له مشاكله . هذا الإنسان لا يمكن أن يكون كذلك . ولو أنه كذلك إياد من الوقت البين . لأن صراع البقاء أو تصاريف الدهور بين شد وجذب . وحربا طويلة معلنة أبد الدهر على شعب يسكن بلدا هو قلب الدنيا ومعبر الأمم ومطمع الناس أجمعين . كل هذه كانت جديرة بأن تعمل على آثار هذا المصرى الذى نصفه بهذا الوصف . من عشرات القرون .

د . حسين مؤنس

فإذا كان المصرى قد بنى مكانه ، وعمل له دولته مخططا بمخطط وحدد وقت التى وضعها له أحداده من الوقت البعيد ، وإذا كان قد بنى وجوده ومكانه فى كل عصر وإزاء رغم ما يعرض له من أخطار وعدوان . فلابد أن فيه جينات أخرى غير ما يبدو ظاهرا للعيان . لابد أن فيه عناصر من القوة والحيوية مكنت له من هذا البقاء . فى حين تساقطت من حوله فى موكب التاريخ أمم عظيمة وأدوار فى الظاهر . عصفت بها تصاريف الزمان . وتساقطت أشلاؤها كأنها أوراق شجر أدبرت به رياح الخريف . وداست الأقدام وأكلته الأرض وعفى عليه الزمان .

وهذا هو الذى يقوله التاريخ . فإما أن يكون هذا التاريخ كاذبا كله . وإما أن يكون المصرى شيئا آخر غير الذى نراه وحسب أنا نعرفه .

فأما أن يكون التاريخ كاذبا كله فهو معقول . لأنه مسطور فى ألف كتاب وكتاب . ويحتمل مراجعة بعد مرات

فلم يبق إلا أن المصرى فى حقيقته إنسان غير الذى نراه ونحسب أنا عارفا إلى صميمه وعرفناه

وذلك هو الحق فى أمر المصرى

إن له أسرارا من القوة والقدرة على مقاومة الوجود قد لا يتجلى لنا هو نفسه . لأنها لا يظهر إلا فى أوقات الشدة والأزمات ومطالب الظروف على مدى الدهور

ونحن اليوم نبنى ونعمل . ونضع الخطط والسياسات بالنظر إلى سنة الثلاثين وما بعد سنة الخمسين

ونحن هنا جميعا ونحن اليوم فى عنفوان البناء . ان نطمئن على مصير ما نبنى ونشيد . وأن نعرف إن كان هذا المصرى — الذى هو نحن — أهلا للبناء الذى نبنيه والأمل الذى نرتجيه

لابد لنا من وقفة نسأل فيها . أيها المصرى . من أنت ؟

أيها المصرى من أنت؟ أنا أى شئ إلا ما يتصورون

لقد ظل كبير مؤرخى الحضارات فى عصرنا وهو أرنولد توينبى أن يصل إلى سر بقاء المصريين واستطاعتهم مقاومة العصور وتوحيدهم واستعادتهم قوتهم مرة بعد مرة على مدى العصور . عندما قال فى دراسته المستفيضة للتاريخ . إن المصرى وحده فى الميدان . أى حضارته . تدخل فى زمرة ما سماه بالحضارات المتحجرة تحجرات الخنزير ولم يشملها ضمن الحضارة البائدة ولا الحضارات المولودة .

والحضارة المتحجرة عنده هى التى تجمد على حالها بعد أن تستنفد قواها فى فترة من فترات النهوض . ثم تنطوى على نفسها عندما يدركها إعياء كما تنطوى على نفسها الحيوانات بائمة الشتاء . فتسكن فى مأمن . ويغلو نفسها ونفسها . وتظل على هذه الحال حتى يجىء الربيع ويدفأ الجو . فتفيق من نومها الطويل . ويعود بعضها ونفسها إلى حاله فى الحركة والنشاط . وتخرج إلى الحياء نشيطة منتشرة تجرى وتزاوج . وتطعم الطعام كأنما ولدت من جديد .

ومن أمثلة الحضارات المتحجرة عند حضارة مصر والصين . فإن كليتهما ولدت منذ العصر الحجرى . وعاشت القرون المظلمة . ثابت وصحت مرة بعد أخرى . وفى كل يقظة تشارد عالمها وقاق بما يسير الأبناء .

ومن أمثلة الحضارات البائدة عند حضارات الخيتين والشينين والمغول . وكلها استنفدت حيويتها ومانت . وفى تاريخنا نحن نذكر عادا وثمود وأهل الرس وأصحاب الأيكة والمؤتفكات . وهذه الأخيرة بادت وغيرت حتى لم يبق فى أذهان الناس منها إلا أساطير الأولين .

ومن أمثلة الحضارات المولودة حضارات اليونان والاسكيمو والبولينيزيين أهل جزائر المحيط الهادى . فكل من هذه حضارة كاملة لها خصائصها وأصنافها . ولكنها تمثل حدا لا تتعداه . لأن ظروف حياتها لا تأذن بأكثر مما وصلت إليه . هؤلاء الأقوام يعيشون فى بيئات قاسية تستنفد قوى أهلها . فهما يتصل بالبولينيزيين مثلا نجد أن صراع البحر وجزائره على عبور المحيط الهادى من نواحى استراليا إلى جزائر هاواى . هذا الصراع يبقى صفوة من خيرة أهلها . أما الأنواع لم يبق فى كيانها جهاد كبير .

ومن الحضارات المولودة حضارات الأنكا فى أمريكا الجنوبية وحضارة الكمبيك . فهذه أولدت وهى فى الطريق بالغزو الأسبانى الهمجى الذى قتلها قبلا ولم يقدم لأهلها بديلا . حتى المسيحية لم يحسنوا تفهمها إليهم . فإذا أولئك الناس يعشرون الشمس ويكسونها السيد المسيح .

والسر فى حيوية حضارتنا المصرية وانبعاثها مرة بعد الأخرى أن قواعدها سليمة وجذورها ضاربة فى تربة مصر إلى عمق بعيد . وأنها نمت واستكملت كيانها على مهل . فنحن نقول إن بيننا وبين عصر نارمر منشىء الدولة المصرية الأولى نحو عشرة آلاف سنة . ولكننا لابد أن نحسب قبل ذلك عشرة آلاف سنة أخرى وربما أكثر . فإن المصرى الذى استقر فى وادى النيل عندما كان الوادى بركا ومستنقعات كان عليه أن يحل كل مشاكل الاستقرار واحدة فواحدة . فبعد اكتشافه النار واتقانه بها ثم صناعة آنية الفخار والنسيج والزراعة – وتلك هى الأسس الأولى لحضارة أى جماعة بشرية – كان على المصرى أن يجفف الأرض ويقيم الجسور حول مساحات من الأرض حتى لا تغمر عليها المياه . ويحارب الحشائش وأفراس النهر وحيتان الماء ووحوش البر وطفيليات السباع من بنات آوى إلى الأسود والنمور . ثم يقيم القبائل ويضع أثاث البيت وما إلى ذلك . وكل هذه صناعات وخبرات اكتسبها المصرى واختبرها فى ذهنه على مر القرون .

ومعنى ذلك أن المصرى تعلم كثيرا جدا فى طريقه الطويل . وفى أثناء سيره الطويل علم نفسه قواعد الأخلاق . وعرف الفضيلة والرذيلة . وبنى أسرته على قواعد أخلاقية . وهذه الأسرة أصبحت أساس حياته . وقواعد الحياة الأسرية السليمة أزكت فى كيانه روح التضحية ونعمة الخير . واضطرته ظروف الوادى إلى التعاون مع جيرانه من الأسر . وتطورت فكرة الأديان والآلهة فى نفسه . فتطورت الأسرة المصرية تطورا سليما فى ظل الدين والفضائل .

تلك هى الجذور العميقة التى قامت عليها حضارة المصرى . وكل ما تلا ذلك من حقبات واسعة وصلت به إلى إقامة الدولة القوية العادلة والديانة المطهرة . ثم إنشاء المدن والنظم والقانون وبقية ما نعرف من وجوه حضارة مصر . كلها بناء على ذلك الأساس السليم .

وطالما الأساس سليما . ومادامت الجذور ضاربة فى العمق . فإن التربة كلها أصبحت تربة حضارية قادرة على إطلاع الحضارات . مثلها فى ذلك مثل أرض الأهناب تحرثها فى الشتاء فإذا هى أرض قراح آرياب . وما يكاد الربيع يهل حتى تخرج الأرض زرعها وزهرها . من أين أتت ؟ من التربة . إنها تربة حية . حتى فى فصل الركود تجد بذور الحياة راقدة كامنة فيض حيوية كأنها عناصر حضارة متحجرة .

• • •

هذا هو أساس الحيوية الحضارية الكامنة فى كيان المصرى . فإذا كانت الحيويات نائمة أثناء الشتاء تعيش فى فترة النوم على ما اختزنت من الشحم أثناء فصل اليقظة . فإن حضارة المصرى تعيش فى فترات التحجر على روح الأسرة . وهى الغذاء الواقى الذى يحفظ عليها الحياة .

فى عصور الأمطار والفيضان . عندما تحتضن الحضارة المصرية والدولة عواصف الزمان وتضاريس صراع البقاء . يلوذ المصرى داخل أسرته ويستكن . فتتحول مصر إلى ألوف بعد الألوف من الأسر . وكل مجموعة من الأسر تعيش فى قرية . والقرية تنكمش على نفسها كما ينكمش قطيع الغنم بالليل ليدفئ بعضه بعضا . وعلى هذه الصورة من الانكماش تعيش .

إذن فالقرية بعد الأسرة هى وحدة الحياة المصرية وميزان حضارتها . وتعصف عواصف الزمان كيف شاءت . وتطغى الدهور . فإذا هدأت العواصف وسكنت الرياح . دبت الحياة فى الأسرة والقرية . ومعنى الناس بعضهم إلى بعض . فلا تلبث أسرة قوية فى قرية واسعة الزمام أن تنهض وتعيد وحدة البلاد .

وتستيقظ عناصر الحضارة الكامنة فى وعى المصرى ولا وعيه . وما هو إلا قليل حتى تقوم الدولة الكبرى وتزهر الحضارة من جديد . وتواصل مصر مسيرتها الحضارية من حيث ناصت رعا قبل قرون .

وليس عجبا أن المزوج المصرى مايزون قسم عصور التاريخ مصر إلى أسرات . فإن الملك المصرى القديم ما هو إلا رب أسرة يسود ويسود حتى تنظم تحت جناحه أسر مصر كلها وقراها . ويبلغ من تعظيم مصر لرب الأسرة الكبرى أن جعلوه إلها . فإن الفاتحين من ملوك مصر القديمة كانوا ومزا للأوزيرية .

وآلهة مصر لم يكونوا أبدا ديوين يطلبون قرابين الدماء . لأن الإله عندما أبا كان مجد رب أسرة . إله الأب الحنون الذى رمزوا له بأقوى وأجمل ما رأوا . الشمس فهو أوزوريس وهو رع . وأم الأسرة هى إيزيس . وبقية الأسرة حوارس جميع حورس والأسر المصرية التى لا تحصى تعيش فى القرى التى لحصى . وهذه كلها تعتبر من ملازما الحضارة وهى تربة مصر . وتربة مصر من صنع النيل . غير الحضارة والعمران

والنيل خالد . ومن هنا فتربة مصر خالدة . وبقدر الحضارة فى تراب مصر لا تموت . لأنها تبقى حية دائما فى غشاء الأسرة . وذلك هو سر بقاء حضارة مصر وانبعاثها إلى الحياة والنهوض مرة بعد أخرى على مر العصور .

• • •

والمصرى هو ابن الأسرة . أسرته الصغيرة أولا . ثم أسرته الأكبر وهى القرية . ثم أسرته الكبرى وهى مصر . الرباط المقدس الذى يجمع أسرات القرى هى أرض مصر . الأرض هنا عنصر فى الأسرة . والمصرى يحب أرض مصر كما يحب أمه . فى سنة ١٩١٠ كان نحو خمس أرض مصر قد تسرب إلى ملكية الأجانب نتيجة لتصرفات الحكام من آل محمد على والإنجليز . ودون تدخل من أحد وبرعا دون وعى . فى سنة ١٩٣٠ كان الفلاحون المصريون قد استعادوا أرض مصر . اشتروها قدانا قدانا وفدانا فدانا . فى سنة ١٩٣٠ كانت كل الأراضى التى حازها الأجانب قد عادت إلى أيد مصرية . بعد حرب ١٩٦٧ لم يكن يؤلم المصريين واحدا واحدا شىء مثل احتلال إسرائيل لجزء من أرض مصر . ولم يقر قلوب المصريين فى مواضعها إلا بعد أن بدأوا يستعيدون أرض سيناء واطمأنوا إلى عودة الماء . والرئيس السادات كسب نصر أكتوبر واستعاد أرض سيناء بروح الأسرة . بصفته رب الأسرة المصرية . أحس أنه لابد أن يستعيد ما ضاع من أرض الأسرة . وسنتحدث عن ذلك بتفصيل أكثر فيما بعد .

فى كل بلاد الدنيا تتكون الأسرة من أفرادها . فى مصر تتكون من الأفراد وأرض الأفراد . أرض مصر عنصر فى الأسرة . هى الأم

وفرعون كان يحكم مصر بروح الأسرة . بدون شعور المصري بأنه يعمل مع رب أسرته وهو الفرعون . ما كان من الممكن أن تبني الأهرامات والأهرامات أعمال فنية كبرى تحتاج إلى الهندسة والفلك والبناء والعامل والنجار والحداد . إنها بناء أسرة . لا يمكن أن يساق شعب كامل بالقوة على طول ثلاثين سنة كما يقال لبناء شيء لا يريده . لما بالك إذا كان هذا الشيء عملاً فنياً من الطراز الأول . هنا شعب كامل يشعر أنه أسرة يبني شيئاً هائلاً جديراً بالأسرة .

ميزان الأخلاق عند المصري القديم – والحديث أيضاً – واضحة الأسرة . أما ترضى عنه الأسرة فهو خلق . ما تنكره الأسرة فهو غير خلق . والأساس في مصر تعود إلى الأسر أو إلى القرى – وهي رباط الأسر – والاثنان سواء . يحكي السيوطي في «حسن المحاضرة» أن شيخاً انتسب أمام شيخ يسمى الدجوي قيل أن يدرس عليه . قال إنه يسمى عبد الله بن محمد بن إبراهيم . قال الشيخ : ما هذا باسم . قال الطالب ليس لأسرتنا اسم غير هذا . قال الشيخ : من أنت ؟ هل هبطت من السماء ؟ قال التلميذ لا ، هبطت من فرص . قال الشيخ إذن فأنت الفرصي وهذا هو اسم أسرتك في «الدر الكامنة» لابن حجر . أي وحلا حرموه من الفضاء لأن نسبته كانت الكازورون . قال الشيخ : لا نعرف أسرة اسمها كازورون . الأسرة عندنا دجوة وإيبار وأخذ وأخذوه والبيت واقط وما إليها . لا يوجد مصري واحد يسمى القسطلاني أو القاهري . لأن القسطلا لم تكن قرية . فأهلها ليسوا أسرة . ولا كانت القاهرة ، ولكن هناك الاسكندراني والرشيدي والدمياطي ، وكلها كانت قرى كبيرة .

والعمل الحضاري المصري دائماً جماعي . المعابد والمسلات والتماثيل الضالة ورسوم المقابر كلها ثمرة عمل جماعي . إنها مظاهر لعمل الأسر المختلفة . كيف تتصور أن يتم عمل بديع مثل رسوم مقبرة توت عنخ آمون أو نفرتاري إلا على يد جماعة من الناس تعمل في تعاون وحب ؟ وانظر اليوم إلى العمال يبنون عمارة تخدمهم يعملون كأنهم خلية نحل ، وخلية النحل أسرة .

هذا لا تفهم حضارة مصر أبداً . إن الفنون والصناعات والعلوم تظل واقفة في قوقعة الأسرة . هذا سر نجاح مصر من جديد وانطلاقها إلى الأمام كلما أتيحت لها الظروف . هذا هو تويين عن حضارة مصر بأنها حضارة منحجرة ، يقصد حضارة مصر القديمة التي حيث أوزارها في عصور طويلة ثم توهجت من جديد . كل الماضي الحضاري يتبخر فجأة دون أن يضيع منه شيء . وأحسن بعد طرد الهكسوس من مصر تسلم تراث مصر الحضاري من يد أمنمحعت الرابع مع أن الفارق الزمني بينهما نحو خمسة قرون .

ومن باب الأسرة يدخل الذين حياة المصري ، يدخلها ميزانا للشر والفضائل . هذه الشر والفضائل نفسها من صنع الأسرة أو أن الأسرة قبلتها ، وما قبلته الأسرة المصرية فهو حق ، وما لا تقبله فهو غير حق ولا يمكن أن يدوم .

هذا لا يفسر شعب مصر فقط لأن الحياة المصرية وهي الأسرة لا تفسر . إنها ترفض ما يناقض طبيعتها . وهذه هي ظاهرة الرفض التي يتميز بها المجتمع المصري . عندما دخل الفرنسيون مصر انتشرت فيها مفاسد الخمر والبغاء . البغاء جاء من حواري المماليك الذين قتلوا أو فروا فخرجت حواريهم تتطوع بحثاً عن القوت . تتفقهن جنود الفرنسيين لأنهم كما يقول الجبرتي «يحبون مطلق الأنثى» ، أي تعجبهم أي أنثى . فرع الجبرتي لرؤية حواري المماليك يحاصرن جنود الفرنسيين ويشربن معهم الخمر في بركة الأزبكية . وخاف أن تفسد نساء مصر . فاقع المصريون الأزبكية وما حولها كانت تلك عملية محاصرة للفساد . كذلك رفض المصريون للفرنسيين السكارى وقدومهم بالطوب . وحذر الناس على عبد من عبيد المماليك القدامى سكران فقتلوه .

بعد قليل اختفى الفساد . وفقدت الأسر المصرية ثقتها إلى يومنا هذا نحن لا نتشدد مع شارب الخمر لأننا نعرف أنه شاذ أو مسكين أو مريض . ونحن لا نعتبر الخمر وهي في متناول كل الناس . ولكننا نعرف أن حاسة الرفض ستقطع الخمر وشاربها كل الأمم كبيرة أو صغيرة يستشري فيها الفساد في فترات من تاريخها إلا مصر . حتى في أسوأ أيام المماليك عندما تحول السلطان الغوري إلى لص . وفقد المجتمع الشوكي . ظل شعب مصر سليماً من الفساد . تقرأ على لسانه وحسي نفسه من فساد المماليك . وفار المماليك ويل شعب مصر . أتى مرة كتاب يشكو من شيوع ظاهرة الرقاصة عند بعض فتيات أهل المدن . وكان إيهم سيفسدون أخلاق المصريين .

قلت له : هون عليك ما دامت الأسرة المصرية ترفض الرقص فسيلاشي الرقص . وهذا هو ذا اليوم يلاشي .

• • •

سواء في عصور مصر القديمة عندما كان التاس ولتين . أو في مصر المسيحية عندما اعتنق معظم المصريين الديانة المسيحية أي البطلية . أو في العصور الإسلامية عندما أصبحت غالبية المصريين مسلمين . فإن الميزان الخلقي في مصر لم يتغير . إنه دائماً ميزان فضائل . فلما تحد المصري دائماً مدنياً . لأن الذين جاءوا فضائل .

والمصري في تكيفه يميل إلى الأبسط والأوضح . خلال عصور مصر البطلية استرد المصريون بطريقة الفانوس وحاربوا الأرثوذكسية لأن الفانوس كان رمزاً بسيطاً صادقاً . مصر كلها وقفت مع طريقة الفانوس أمام بقية دولة الروم . عندما طردوا كنيسة مصر في مجمع أفسوس ثم خلعوا بطريقة لمكنا بطريقتنا المصرية . عندما خلع البطرك يوليخوس البطريك ديوسقوروس قال أساقف القسطنطينية : فرعون خلع فرعونا .

وعندما طرق العرب أبواب مصر كان زعيم المصريين وهو المقوقس : هو الذي تفاهم مع العرب وحاكمهم وفق تقاليد الأسقف فيس الذي كان يمثل كنيسة القسطنطينية . فيقول ما يعرفون أن المقوقس رجل مصري من نواحي دمياط . وأخوه هو الأسقف بيامون الذي أنحاء العرب أبامون . والمقوقس منت هي أرمانوسة التي وقعت في أسر المسلمين فردها عمرو بن العاص إلى أبيها معززة .

المقوقس في هذه الحالة هو رب الأسرة . ورب الأسرة صالح العرب فصالحهم المصريون جميعاً

• • •

في العصر الفاطمي كان كل المصريين على المذهب الجوزجزي الذي سمي بالمعقوق ، كل المصريين هنا كانوا حلف وليس الأسرة المصرية وهو بطريقة الكرازة المرقسية ، ومرقس بعد أن استقر مع وليس حلاً إلى مصر وكتب فيها إنجيله وأسس الكرازة المرقسية ، والكرازة هي الكنيسة لأنها تعريف لفظة الكنيسة . وبدلاً من أن يقولوا الكلازة قالوا الكرازة .

مصر الإسلامية كانت كلها على مذهب السنة . لأنه مذهب رب الأسرة الإسلامية وهو الخليفة السني . حكم الفاطميون مصر حوالي ٥٧٥ قرون (٣٦٢ - ٥٥٥ هـ / ٩٧٢ - ١١٦٠ م) وخرجوا منها دون أن يجعلوها شيعياً واحداً . لأن السنة هي مذهب رب الأسرة الإسلامية ومنها الأسرة المصرية . وقارن اضمحلال المذاهب وتعاديها في كل بلد إسلامي آخر .

هنا أيضاً حكمنا روح الأسرة . كما يكون رب الأسرة يكون أفرادها . ورب الأسرة ليس سيدها ولكن رئيسها بالتراضي . هنا نضع يدنا على سر وحدة مصر واستمرار حضارتها وبقائه معالم هذه الحضارة على مر العصور .

هذا سر من أسرار قوة مصر الكبرى غرقاد بعد أن كنا نسياء . وما أكثر ما نسينا من خلائق طيبة المصري وشخصيته

□